دار المنظومة
DAR ALMANDUMAH
الرواد في قواعد المعلومات العربية

العنوان: اتجاه جديد في الدراسات الأدبية المغربية
المصدر: مجلة آفاق
الناشر: إتحاد كتاب المغرب العربى
المؤلف الرئيسي: النساج، السيد حامد
المجلد/العدد: ع 1
محكمة: لا
التاريخ الميلادي: 1972
الشهر: شتاء
الصفحات: 93 - 107
رقم MD: 519952
نوع المحتوى: بحوث ومقالات
قواعد المعلومات: AraBase
مواضيع: الأدباء المغاربة، المغرب، النقد الأدبي، التحليل الأدبي، الجراري، عباس، التراجم
رابط: http://search.mandumah.com/Record/519952

© 2021 دار المنظومة. جميع الحقوق محفوظة.
هذه المادة متاحة بناء على الإتفاق الموقع مع أصحاب حقوق النشر، علما أن جميع حقوق النشر محفوظة. يمكنك تحميل أو طباعة هذه المادة للاستخدام الشخصي فقط، ويمنع النسخ أو التحويل أو النشر عبر أي وسيلة (مثل مواقع الانترنت أو البريد الالكتروني) دون تصريح خطي من أصحاب حقوق النشر أو دار المنظومة.

دكتـــور سيد حامد النساج

اتجاه جديد فى الدراسات الادبيـــة المغربيـــة

لاشك أننا فى المشرق العربى بعامة ، وفى مصر بخاصة، لم تتح لنا الظروف كى نطلع على الآثار الادبية والنقدية ألتى ينتجها اخواننا فى المغرب الاقصى على وجه التحديد. واذا كنا قد تعرفنا على ملامح الحياة الفكرية والادبية فى القطر الجزائرى ، فان ذلك راجع الى العلاقات ألتى ترتبت على ارتباط الثورتين ، والعوامل التى أحاطت بهذا الارتباط فى أوائل النصـــف ألثانى من القرن العشرين . كما ساعد على هذا من بعض الوجوه أن الادباء ألجزائريين كانوا حريصين على تقديم انتاجهم للقارىء العربى، لتعريفه بثورته وشهدائه وحقيقة نضاله. بل انهم فى الاغلب كانوا ينشرون انتاجهم من شعر ونثر فى الصحف والمجلات العربية بالمشرق، مما دفع أدباء ألمشرق ونقاده ألى تتبع ما يصدر عن هؤلاء ألكتاب من أدب ، ليروا الى أى حـــد استطاعوا تصوير ألحياة والواقع فى مجتمعهم.

وفى نفس الوقت الذى شهد انشغال الادباء والنقاد فى ألمشرق بأدبهم من ناحية، والأدب الجزائرى من ناحية اخرى ، لم يسع أدباء المغرب الاقصى ـــ بصفة دائمة ومستمرة ـــ الى تعريفنا بآثارهم الفنية والادبية لنحيط علما بأدبائهم وفنانيهم ونقادهم ومفكريهم ودارسيهم، ولنتتبع حركة الحياة الادبية والفنية والفكرية والعلميـــة عندهم !

والواقع أن اتحادات الادباء تتحمل جزءا كبيرا من المسئولية. فعليها أن تيسر سبل الاتصال ، وأن تعمل على ازالة العقبات التى تقف فى سبيل

سرعة تصدير الكتب، وأن يهيىء تبادل المجلات الادبية والفنية، وكذا النشرات العلمية. والا تكتفى بعقد لقاء سنوى يتيم ، يأخذ طابعا رسميا ، وبتشكل بصفة روتينية ، ويضم أعضاء بحكم مناصبهم، ولا يحتضن فى الغالب كل الاتجاهات ، ويكتفى دائما بمناقشة قضايا متكررة ، لاتتجدد ولا تتنـــوع .

ورغم كل هذا فان صوتا عالى النبرة استطاع أن ينفذ الى آذان النقاد والدارسين فى المشرق، يخبرهم بأن تلك الحواجز والقيود والسدود لـــم يعد لها الآن مكان، ففى المغرب أدب وفن وفكر، وفى المغرب دراسات أدبية ونقدية، تسعى كلها لتحتل مكانا فى الحياة الادبية العربية، ولا ينقصهـــا الا أن تسلط الاضواء عليها ، لتكشف عن وجهها الحقيقى، ولتبرز ملامحها وقسماتها الرئيسيـــة.

انه صوت الدكتور عباس الجرارى الذى قدم فى مارس 1970 دراسة جادة وجديدة عن (الزجل فى المغرب : القصيدة). ثم لا يلبث قبل أن يكتمل النصف الاول من عام 1971 أن يهدى جمهرة القراء كتابين آخرين متوسطى الحجم، كجزء مقتطع من جهده طوال العشر سنوات المنصرمة ، تعبيرا عن حبه لوطنه الكبير . ويحمل الكتاب الاول عنوان : (من وحى التراث) ، بينما عنوان الكتاب الثانى هو (الحرية والأدب). وكل كتاب من هذين الكتابين يحمل وجهة نظر جديدة وجديرة بالاعتبار ، لا تناقض بينهما، بـــل تكمل احداهما الاخرى، مما يجعل قراءة الكتابين معا أمرا طبيعيا، بل ضروريا ولازما ، حتى تتبلور لدى القارىء فكرة واضحة عن شخصيـــة الدارس واتجاهه وأسلوبه فى عرض الموضوعات وتناولها، والاســـاس النظرى الذى ينطلق منه، أو الايديولوجية التى يؤمن بها ، ويفسر على ضوئها الآثار الادبية والفنيـــة .

وليس غريبا أن يقال ان الدكتور عباس الجرارى أخلص أيما اخلاص لموضوع بحثه فى الكتابين ، كنتاج طبيعى لارتباطه وحبه وتمسكه بقضايا الشعب المغربى، وتمثله لقيمه وعاداته وتقاليده وسلوكه وأخلاقياته وكل ما يتصل به من قريب أو بعيد . ولعل صور هذا الاخلاص والحب والولاء والوفاء فى آن معا ، تجد أوضح دليل وأصدقه فيما نجده من دراسات الدكتور الجرارى وبحوثه حول التراث الشعبى المغربى فى الكتاب الاول. فان اهتمامه بالتراث الشعبى يبدو فى كل صفحة من صفحات الكتـــاب ، وهو حين يستشهد بنماذج تأييدا لفكرة أو تثبيتا لقول أو تأكيدا لرأى، انما ينتخبها من الفولكلور والأدب الشعبى أو من التراث الشعبى عمومـــا .

لذا فانى كنت أفضل لو أنه أضاف الى عنوان كتابه وصفا للتراث وتحديدا لنوعيته وتعيينا للاطار البيئى الذى تدور حوله الدراسة، كأن يطلق عليه (من وحى التراث الشعبى المغربى) أو (دراسات فى التراث الشعبى المغربى) وهو بالفعل كذلك ، وليس أى شىء غير ذلك !

ذلك أن الدكتور الجزارى فيما يبدو قد عز عليه أن يقرأ ويقرأ عن الفولكلور فى روسيا وفنلندا وأمريكا والبرازيل وانجلترا وفرنسا وبلجيكا وايرلندا والدنمارك. وأن يسمع عن أن هذه البلاد أقامت للفولكلور مؤتمرات، وأنشأت صحفا ومجلات خاصة به، وخصصت له متاحف وخزائن مثل متحف «نوردسكا» الذى أسس فى السويد 1872. كذلك فانه تابع الاهتمام بهذا اللون فى مصر والعراق والكويت وتونس والسعودية ولبنان ، على احتلاف فى صور هذا الاهتمام وأشكاله ، بينما المغرب — موطنه وبيئته وذاكرته الماضية والحاضرة — بأدبه الشعبى ، ظل بعيدا عن ميدان البحث والدراسة والتحليل . فآلى على نفسه هو أن يقوم بهذا الجهد وحده ، وأن يتحمل عناء ومشقة، وأن ينفق من وقته وصحته وماله ، الشىء الكثير ، فى سبيل اظهار الشخصية المغربية الحقيقية، بلا رتوش ودونما تزويق أو تلفيق، كما صورها الشعب نفسه بنفسه فى أزجاله وقصائده وقصصه وحكمه ومأثوراته !

وفوق ذلك كله فان الدكتور الجزارى قد اختار جانب الدراسة والبحث والاستقصاء فى محيط الادب والفكر والفن، راضيا واعيا من أجل هذا الهدف. اذ ترك العمل الديبلوماسى الذى قد يبعده عن الجماهير وقوى الشعب الفاعلة. وآثر الادب تأليفا وتدريسا وبحثا، حتى يظل بصفة متصلة مرتبطا بالشعب الذى يحبه، متمثلا فى تدريسه لادبه وفنه، فى ماضيه وحاضره من ناحية ، ومجسدا فى أبنائه الطلاب الذين يشكلون مستقبل الشعب وأمله القادمة .

ولما كنا فى المشرق العربى فى حاجة ماسة للدراسات التى تكشف لنا «الشخصية المغربية» من خلال الدراسة العلمية الموضوعية لتراث الشعب ، لذا كانت فرحتنا عظيمة عند ما بدأنا نتلقى مؤلفا اثر آخر يعبر عن وجهة نظر محدثة للتراث وللادب الشعبى ، وللعلاقة بين الحرية والادب فى وقت واحد . وجدير بالذكر أن المشرق العربى قد شهد فى فترات متقاربة، وبخاصة بعد نشوب الثورات التحررية والوطنية والاجتماعية ، بحوثا ودراسات جادة تناولت بالتفسير والتحليل تراث الشعب، فى محاولة للكشف، وتسليط الاضواء على الجانب غير المرئى من شخصية الشعب

وأخلاقياته وقيمه، وهو الجانب المهمل الذى لم يلتفت اليه الدارسون الكلاسيون من قبل. فقد شغلوا بالادب الكلاسى الرسمى وحده دون غيره من فنون الادب ووسائل التعبير الاخرى. وكأن البيئة العربية بعامة، فى مشرقها ومغربها ، فى شمالها وجنوبها ، لم تعرف غير هذا الادب التقليدى، أو غير الشعر الموزون المقفى.

والحق أن الشخصية القومية لا يمثلها تمثيلا صادقا الا ما يصدر فعلا عن الشعب . عن الجماهير الشعبية التى تتحرك حركتها اليومية، واضحة صادقة مخلصة صريحة ، تجهد وتكدح وتعمل، وتغنى وترقص، ثم تتسامر وتقص القصص، وتطلق النكات، وتحكى الحكايات، معبرة ببساطة وعمق فى نفس الوقت عما تعانيه ، وعما تشعر به وتحسه وتدركه بفطنتها وذكائها ووعيها الكامن فى أعماقها. ومن ثم فانها لم تكن تحتاج فى وقت من الاوقات الى «الوسطاء» للتعبير عن مآسيها وآلامها وأحزانها وكل ما يعتمل فى أعماقها . هى وحدها القادرة على التعبير عن نفسها ، لانها وحدها القادرة على الفعل والحركة والتأثير، حتى وان كان ذلك ابان خضوعها لمستعمر مذل . فهى عند ما تكون السلطة أقوى وأعنف وأكثر تشددا فى تكميم الافواه ، ووأد الافكار الحرة الجريئة ، وقتل الملكات الابداعية ، يلجأ الشعب الى النكتة والسخرية والتهكم والنقد اللاذع المر العنيف . ولكن كل ذلك بفن مدهش معجب. اذ أن للشعب دائما أبدا فنه المعبر عنه، وله أدبه الذى ينم عن شخصيته ووجوده، ويثبت أصالته وكينونته وحركته المتطورة فى مدارها الصاعد .

وقمة الاخلاص للشعب وقضاياه تكمن فى الحرص والتوفر على دراسة فنونه وآدابه، ومعايشته عن طريقها وبوسيلتها فى مشكلاته، والتعرف الى مصادر همومه ومنبع آلامه ومبعث أحزانه. وهذه هى أولى الطرق الى البحث عن وسيلة للعلاج أو عن طريقة للخلاص ، وقد ادرك الدكتور الجزارى ذلك جيدا، حيث يقول : (ولعلى أن أنبه كذلك الى أن الكفاح من أجل رد اعتبار الشعب واقرار سيادته لابد أن يكون مقرونا — ان لم يكن مسبوقا — بالاعتراف له بلغته وفكره للتقريب بينهما وبين اللغة والفكر المدرسيين، بالتأثر والتأثير المتبادلين ، وفى محاولة لاجتياز الهوة العميقة الفاصلة بين ما هو شعبى وما هو مدرسى، والاعتراف له بكل ما أنتج عبر العصور والاجيال، لتحدد من خلال هذا الانتاج حقيقة شخصيته ونفسيته ومدى قدراته وطاقاته وامكان تفاعلها مع ما يخوض من نضال لامداده وتصعيده.) (1)

(1) «من وحى التراث» ـ ص 8 .

كذلك فان الدكتور الجرارى ينطلق فى دراسته من مفهوم محدد للتراث الشعبى ، يجعله يفرق بينه وبين التراث المدرسى بشكل واضح، ويرى أن التراث الشعبى (هو خلاصة ما ابدع الشعب بمختلف طبقاته البدائية والمتمدنة من ثقافة وحضارة لا تقومان على أسس علمية مدروسة، تبدو ظواهره فيما يمارس من عادات وتقاليد ، وما يتمثل من قيم وأخلاق، وما يحس من مشاعر ووجدان ، وما يتداول من قصص وأمثال وأشعار ، ومايزاول من فنون وصناعات ، كلها تعيش فى أعماقه الواعية واللاواعية، يحسها مرة ولا يحسها مرات، ولكنها أبدا معه وفى حياة مستمرة ، تكيف مزاجه وتحدد شخصيته وتميز عبقريته وتشغل بذلك وجوده.)(2)

ورغم ما يبدو من حماس المؤلف لموضوعه ، وانعطافه النفسى الكبير نحو التراث الشعبى ، الا أنه ينظر اليه ، والى التراث بصفة عامة، نظرة تقدمية، تريد أن تؤلف بين الاصالة والمعاصرة، ولا ترغب فى الوقوف من التراث موقف التقديس والتأليه والتبجيل، حتى لا تنعزل عن الحاضر بكل صراعاته وتفاعلاته، وحتى لا تدعو الى الانغلاق على النفس، والانصياع للماضى والقدر، أو للتبعية والتقليد. فهو يرفض المحاكاة التامة لكل ما هو قديم، ويثور على الثبات والجمود، ويؤمن بالتطور والتقدم والتجديد المتواصل والمستمر. وليس ذلك فحسب، بل انه يطالب بالتنقيب فى تراثنا عما هو ثورى وبناء وتقدمى ، ليكون وسيلة لاثارة الجماهير، ودفعها للعمل نحو تغيير الواقع .

يؤكد ذلك ما يثبته فى مقدمة الكتاب **ص 5** : (وينبغى حين نتحدث عن التراث، الا نفعل ذلك على اعتبار أن هذا التراث كامل ومقدس لا يمكن مناقشته ، بل على أساس من المنهجية العلمية القائمة على التحليل والنقد، بقصد البحث عن الجانب القابل للتطور والتكيف مع الواقع لتغيير بنياته ، وبهدف فتح آفاق للمستقبل وبث الامل وتقويته فى النفوس، والالقاء بشعاع من نور على الطريق ، واثارة الجماهير للعمل، أى بالتنقيب فى التراث على كل ما هو بناء وتقدمى ليصبح عنصرا ايجابيا قادرا على مواكبة معركة التحول وامدادها بقوة وفعالية).

وعلى هذا الاساس يبدأ المؤلف فى بحثه عن التراث الشعبى، محددا أنواعه، ومبينا ما يتضمنه من الوان أدبية وفنية. ثم يتناول بالتفصيل الادب الشعبى، والفنون الشعبية ، والتقاليد والمعتقدات الشعبية، ويقف وقفات

(2) «من وحى التراث» — ص 88 .

متأنية عميقة عند كل جانب من هذه الجوانب. فيدرس الامثال والاحاجى والقصص والاشعار والمرددات ، والموسيقى والرقص والتمثيل والالعاب والرسم والغناء ، وكل ما يتصل بالفولكلور من قريب أو من بعيد .. وفى النهاية يفرد للقصة عند العرب فصلا مستقلا استغرق سبع عشرة صفحة. وبطبيعة الحال فانه لم يتعرض للقصة الا ليصلها بالتراث ، وليعلن رأيه فى قدمها، وان العرب عرفوها فى جاهليتهم ! ولا يخفى أن القصة فى حد ذاتها تحتاج الى دراسة خاصة ، لتباين اتجاهاتها ، وتعدد أشكالها ، وتنوع مضامينها . اذا كان المؤلف ذكيا حين اكتفى بتناوبها من زاوية علاقتها بالتراث موضوع الكتاب الرئيسى .

وينسحب مفهومه التقدمى للتراث بعامة على تعريفه للادب الشعبى بخاصة. واذا كان الدارسون قد اختلفوا فى تحديد ماهية الادب الشعبى، وذهبوا فى ذلك مذهبين : فريق يرى أنه الادب القديم الصادر عن العوام والمتداول بالرواية الشفوية، والذى لا يعرف مؤلفه. فى حين يذهب آخرون الى القول بأنه الادب الذى أنشأه الشعب سواء بلغة عامية أو مثقفة، وهو الرأى دعا له العالم الروسى«بوخارين»، حين اعتبر كتابات «مكسيم جوركى» من الادب الشعبى على الرغم من أنها لم تكتب بلغة دارجة. الا أن الدكتور الجرارى يحاول الجمع بين الرأيين فى توليفة جديدة تضم المروى والمدون، الفرد والجماعة، العوام وغير العوام ، مجهول المؤلف ومعروفه على حد سواء . ففى ميزانه الجديد لا يطغى جانب على الآخر ، وانما هو يريد أن يحتفظ لكل بحقه، وأن يعترف له بوجوده وتأثيره وامتداده. ومن هنا نلاحظ أن مفهوم «الشعبية» قد اصطبغ بصبغة جديدة، يقول المؤلف ص 118 (ان الادب الشعبى هو الادب الذى يعبر عن مشاعر الشعب وعواطفه ، وبصور عقليته ونفسيته، ويميز شخصيته وعبقريته ، لافرق بين أن يكون قديما أو حديثا ، مسجلا بالكتابة أو مرويا بالشفاه ، صادرا عن فرد أو منسوبا لجماعة ، لا نشترط فيه الا أن يكون بلغة عامية مهما كان مستوى هذه اللغة، ومهما بلغت درجة اقترابها أو ابتعادها عن اللغة المدرسية المثقفة) .

ويستطرد المؤلف شارحا ومفسرا : (وليس مقياسا للشعبية عندنا أن يحصر الادب فى نطاق العوام لا يتعداه لما سواه ، ففى حصره تحجير عليه وعلى منشئية . وليس مقياسا لها كذلك أن يكون متوارثا عن طريق الرواية الشفوية ليس غير ، بعيدا عن التدوين ، ما دامت طبقات الشعب — وهى امية فى الغالب — لا تتداوله عن طريق المدونات ، وليس مقياسا للشعبية كذلك أن يكون مؤلف الادب مجهولا ، لاننا وان كنا نحكم الجماعية،

فاننا لا نراها فى تجاهل حق المؤلف وامتصاص ابداعه ، ولكننا نراها فى تبنى الجماعة لانتاج الفرد بموافقتها عليه وتداوله ، طالما أن هذا الفرد قد عرف بانصهاره فيها واحساسه بمشاعرها ومشاكلها أن ينتج أدبا يتلاءم مع دوقها ، ويتفق مع مزاجها، ويعبر عما تعيشه من واقع ، وتطمح اليه من تطلع).

ويستمر المؤلف فى تطبيق هذا المفهوم على كل ما تناوله من آثار أدبية شعبية ، ومن قصائد زجلية أو ملاحم مغربية، أو أزجال عامية ، او أساطير وقصص شعبية أو أمثال ومرددات ، وان كان الغالب بطبيعة الحال هو الادب مجهول المؤلف الذى ترددد الجماعة تعبيرا عنها وتصويرا لمراحل حياتها الاجتماعية والنفسية . والامر فى المغرب العربى لا يختلف عنه فى المشرق العربى كثيرا . ذلك أن الادب الشعبى عرف مؤلفين عبروا عن الشعب فى كل ما ابدعوه من فن، مثل عبد الله النديم، وبيرم التونسى وغيرهما. الا أن التراث الغالب هو الادب الجماعى مجهول المؤلف . وجدير بالذكر أن المؤلف دائما حريص على عقد المقارنات العلمية، والوقوف عند مواطن التشابه والاختلاف، لتبيان أوجه التأثر والتأثير بين الآداب الشعبية بعضها والبعض الاخر. والحق أننا فى مجال دراسة الادب الشعبى والفولكلور عموما فى حاجه الى مزيد من هذه المقارنات التى تفيد فى معرفة نفسية الشعوب ، وأعماقها ، وكيفية مواجهتها للمواقف ، وتفسيرها للاحداث التى تعترض طريق حياتها ، ومدى اتفاقها أو اختلافها فى التعبير عن حركتها العادية فى حياتها اليومية ، وتعبيراتها ، ومصطلحاتها، ومأثوراتها ، ووجهة نظرها فى كل شىء وكل أمر .

يضاف الى هذا أن المؤلف دائما لا يفوته ذكر مقترحات فيما يتعلق بوسائل الاهتمام بالتراث من ناحية، والادب الشعبى من ناحية أخرى . وكأنه يجد فى هذه الاشارات مسئولية كبرى ، اذ لا يقف دوره كباحث ودارس عند حد تفسير الظواهر وتحليلها وتعليلها ، وانما يمتد فيشمل التوجيه والارشاد والنصح والقيادة ورسم خطوات المستقبل ، والعمل على متابعة تنفيذها . فهو فى صفحات 51 — 52 — 162 ينير الطريق الى ما ينبغى عمله بالنسبة للتراث الرسمى والفولكلور والادب الشعبى ليس فقط على النطاق المحلى وانما على النطاق العربى كله. وأستطيع أن أضيف الى مقترحاته فكرة تخصيص مجموعات من الدارسين والباحثين والمتخصصين فى كل فرع من فروع العلم والمعرفة تجوب أقطار العالم ، تنقب عن الاماكن التى يوجد بها ما يمت الى تراثنا بصلة، والتوفر عليه لمعرفة أصله وحقيقته وصحته ، ثم دراسته وتحليله، فدارسو التاريخ

والاقتصاد والاجتماع والفقه والقانون والنظريات السياسية والفلسفية والفنون وغيرها يستطيعون الاسهام بشكل ايجابى وفعال فى تنفيذ فكرة احياء التراث بمعناه العام ، نحن فى حاجة الى جهود جماعية متضافرة متعاونة ، حتى لا تكون نظرتنا الى التراث قاصرة على ما يتصل منه باللغة أو الادب. فقد يحتاج احياء كتاب من كتب التراث الى اكثر من متخصص فى أكثر من علم وفن ومجال من مجالات النشاط الفكرى والعقلى والعلمى والوجدانى . ويجب أن تعطى لهذه المجموعات صلاحية وحرية الحركة لا التوقف ، والانتشار لا الانحصار ، بمعنى الا تكون ثمة قيود على عملها العلمى الموضوعى . ثم أن جانب الاشراف على هذا المشروع لا يقتصر على دولة عربية واحدة ، وانما تشترك فيه كل الدول العربية بلا استثناء، بمتخصصيها وعلمائها وما لديها من كنوز مخبوءة ، وأموال ، على أن يكون لها بعدئذ ما تحتاج اليه من نتاج عمل هذه المجموعات، ولتكون لذلك هيئة عربية عليا باسم «المجلس القومى العربى لاحياء التراث» !! بمعنى أنه لابد من أن يؤخذ التراث مأخذا واقعيا عمليا لا مكتبيا ونظريا . والمقصود هنا بطبيعة الحال ، التراث الشعبى والرسمى . وقد أشار الدكتور الجرارى الى طريقة عملية بالنسبة للتراث الشعبى المغربى فى الصحيفة رقم 41 حيث يقول : (والامل كبير فى أن تعيره الدولة اهتمامها وتعمل على تكوين باحثين متخصصين يتصلون بالشعب فى المدن والقرى والبيوت والاسواق والمجالس العامة والخاصة يسجلون أفكاره وقصصه وأمثاله وأغانيه وعاداته وعواطفه وطاقاته ومختلف ألوان حياته، ويدرسون فى موضوعية ومنهاج هذا التراث الذى مازال حيا على لسان الشعب وفى قلبه وتقاليده ومعتقداته وفنونه معبرا اصدق تعبير عن شخصيته وعبقريته). ونضيف ما يفيد فى تحديد مدى الاستفادة من هذه العملية ، وكيف أن الهدف منها ليس مجرد الحفاظ على هذا التراث بشكله الذى هو عليه ، وانما لتطويره ، وخلق شىء جديد منه، يعنى بالفنية والتقنية. فضلا عن انتخاب الجوانب الهادفة البناءة فيه ، والاستعانة بها فى تطوير واقعنا ودفع الجماهير الى الحركة والتقدم نحو تغيير ما هو سلبى ورجعى فيما حولها .

وغنى عن القول أن هذه هى الفكرة الرئيسية التى يعالجها الكتاب الاول (من وحى التراث) والتى نلمح ظلها فى ثنايا السطور . فهى تتردد عنده دائما، وهو يلح فى ذكرها والتركيز عليها ، لانه لا ينظر الى التراث نظرة الدارسين الكلاسيين، وانما يعالجه ويتعرض له من زاوية جديدة . لا تقف منه وقفة الشاعر القديم أمام آثار محبوبته وبقاياها، باكيا منتحيا،

وانما تمد يدها اليه ، تقلبه وتنقب فيه ، لتعيد اليه الروح، ولتبعث فيه الحياة، ولتجدده وتطوره وتجعله حيا متدفقا نافعا هادفا ..

أما الكتاب الثانى (الحرية والأدب) فانه يبلور كل الآراء المتناثرة فى كتاب (من وحى التراث) ، بل يبرز بوضوح وجلاء شخصية الباحث الاديب والناقد الدكتور عباس الجرارى : صاحب الفكرة المتزنة ، ومعتنق العقيدة الصائبة ، وذو الرأى الفعال والكلمة النفاذة ، والهدف الواعى الاصيل ، وأخيرا الجرارى الثائر التقدمى .

انه يعلن أن واقع أمتنا (يجسم تحالفات عديدة تتآمر على قوى الثورة لتصفيتها ، وعلى الجماهير والطليعة الواعية، لتباعد بينها ، وتحول دون تفاعلها والتحامها ، ولتسلبها حريتها ، ولتقهر ارادتها، ولتعطل قدراتها ، وتشل طاقاتها للمساهمة فى حل المشاكل والقضايا المصيرية التى تعانى منها ، ثم لتعزلها فى النهاية عن هذه القضايا والمشاكل). **ص 67.** وهو لا يطلق هذه الصيحة هكذا ، وانما ليكشف النقاب عن العامل الاساسى الذى قد يؤثر فى العلاقة بين الادب والحرية . ذلك أن الحرية فى نظره (ارادة جماعية ونضال جماهيرى ، وقدر مشترك لا مناص منه ، يعتبر الاديب ملزما أن يقود الجماهير لتحقيق أحداثه ووقائعه، ليخلص حاضر أمته من براثن الرجعية والاستعمار وما ارتبط بهما من ضلال وتخلف وفساد، ثم ليصنع بعد ذلك مستقبلها ومستقبل الاجيال القادمة) . **ص 70** . فالحرية لست فقط علاقة تربط الاديب بضميره هو ، ولكنها تربطه أيضا بضمير الجماعة ، لانه انسان مواطن ينفعل مع مواطنيه بالاحداث ويلتحم بالصراع الذى يخوضونه جميعا ، (وكنه فيهم طليعة واعية، يمهد السبيل لحركة التغيير، ويحدد لها الرؤيا والبعد، ويحشد لها الطاقات ويفجرها ، ويلهم الجماهير حركة الكفاح وحب الحرية والتطور والتقدم . وهو قائد رأى يتقدم المسيرة عند النضال الثورى وعند اعادة تشكيل المجتمع.) **ص 14**

الاديب هنا لم يعد حرا وفق المفهوم القديم للحرية ، ولم يعد طليقا من كل قيد، يصور أوهام عقله المريض، ويفرض ذاته ويقحم مشكلاته الخاصة على الناس دون تحمل أية مسئولية بدعوى حرمة الفن وحريته، وانما هو مسئول عن المجتمع : يبصره بحقيقة أوضاعه ، ويشحذ همته ، ويقوى آماله ، ويعينه على تحقيق أهدافه . فالاديب لا يؤلف شيئا أى شىء، وانما هو يقصد الى غاية ، لانه أولا وقبل كل شىء ، مسئول أمام الجماعة، ويجب أن يكون فنه فى خدمة هذه الجماعة .

ويستلزم هذا فى تصورى ضرورة توفر عنصر «الوعى». وهو عنصر لازم لتحقيق وظيفة الفن فى المجتمع من ناحية ، ولتبلور «خامات» الواقع فى «شكل» فنى من ناحية أخرى، حتى لا تظل هذه الخامات وقائع مساوية تماما لما يعرفه كل الناس . وهذا يستلزم وعى الفنان بمجتمعه، لان هذا الوعى هو الذى يحدد قيمة انتاجه الفنى. ومن ثم فان عليه أن يكون على قدر من الوعى الاجتماعى السليم الذى يمكنه من المشاركة فى مشاكل عصره والمساهمة فى تقدم المجتمع بفنه. فالفنان أو الاديب هو ضمير المجتمع، ولا أحد يكتب أدبا صادقا الا لانه قد اتخذ موقفا محددا فى الحياة ، نتيجة رؤيته للاشياء من زاوية معينة تهم المجتمع وتفيده . فالوعى الاجتماعى للفنان أمر مفروغ منه، والفن الواعى الذى يعبر عن الحياة ، قادر على الاستمرار والتأثير والامتداد فى الزمان والمكان .

ولا يعنى هذا ابدا الدعوة الى أدب قرع الطبول والخطب الحماسية والتقارير والمنشورات ، وانما الاحتفال بالادب الواقعى الثورى فى المضمون والصنعة الفنية على السواء. لان الادب هو ذلك النسيج الجميل الواعى بين خيوط المضمون وخيوط الشكل الفنى. وبتفاعلهما معا، وتآزرهما جميعا على ابراز المضمون الادبى بكل ما ينبغى أن يشتمل عليه المضمون من جمالية الشكل الفنى ومن تحديد الدلالة الاجتماعية . بمعنى أنه ليس ثمة ما يمنع الفن لكى يخدم المجتمع والجماعة والجماهير من أن يحرص على أن يكون فنا أولا واخيرا. وان حرصه على أن يكون فنا لا يعنى مطلقا انفصاله عن المجتمع وقضاياه ومشكلاته ، ولكن معناه الوحيد والمفهوم فيما أعتقد أن يدعو الفن للمجتمع بالطريقة الوحيدة التى يحسنها والتى تبرر بقاءه والتى لا يمكن أن يكون شيئا غيرها، الا وهى : ترجمة المجتمع الى أشكال فنية خالصة . المجتمع كله بما فيه من آراء وأفكار وعواطف وانتصارات وهزائم ومشاعر وتفاهات وأشياء مجيدة وغيرها .

فالوعى الاجتماعى اذن لا يتناقض ابدا مع الفن، وانما هو سلاح يجعل الاديب على دراية كافية بما يحيط به، ويقفه على حقيقة الصراع فى المجتمع، ويمده بفهم سليم للواقع، من حيث كونه ليس لحظة جامدة ولكنه حركة، وعلاقات، وتأثير، وتأثر. اذ من غير هذا الوعى يصبح من الميسور عليه أن يخلط بين التجربة الخاصة والتجربة الاجتماعية العامة، فيعمم حيث لا يجب التعميم، ويصل أدبه بذلك الى مضمونات خطيرة ربما لم يكن يقصدها فى بادىء الامر. وهذا كله يستلزم من الاديب معرفة واحاطة ودراية بما يدور حوله .

ونحن لا نتطرف فنقول على الاديب أن ينغمس «انغماسا كليا» كما يذهب الى ذلك «سلامة موسى» الذى يقول : (والاديب الحق فى أيامنا هذه هو ذلك الذى ينغمس فى السياسة والاجتماع والاقتصاد والعلم ونظم الحكم ونظم العدل ووسائل الثراء الذى يحقق للشعب رفاهية، وليس ترفا، وأسباب الفقر التى تحدث الجريمة والفضيحة والمذلة. بل كذلك يدرس شئون التعليم وحرية الدراسة ويضع الحقائق فوق العقائد.) (3) ولا نسرف أكثر واكثر مثل «لطفى الخولى» الذى يرى عدم الفصل بين الادب والسياسة لان مضمونهما واحد : (ان هذا الفصل بين الادب والسياسة فصل غير طبيعى لا يهضمه واقع الحياة المعاشى والمتطور. فالسياسة ليست الا المعالجة الشاملة لمشاكل المجتمع من حيث نظام الحكم وحقوق المواطنين بعضهم وبعض، ثم بينهم وبين الدولة. فاذا انتقلنا الى المجتمع العالمى تعرضت السياسة لعلاج مشاكل السلام العالمى وتقدم الانسانية والادب فى حقيقته هو التعبير عن المجتمع محليا كان أو عالميا، ومعنى هذا أن المادة الخام للادب والسياسة واحدة وان اختلفت طريقة المعالجة، وبتعبير آخر فان المضمون الجوهرى للادب هو بعينه المضمون الجوهرى للسياسة) (4)

ان الانغماس فى كل هذه المجالات التى ذكرها «سلامة موسى» قد يدفع الاديب الى أن يصبح داعية لمذهب من مذاهب السياسة أو الاجتماع أو الاقتصاد بشكل أو بآخر. فيغدو أدبه خليطا بين الدعاية والادب، بل يصبح هو أقرب الى رجل السياسة أو رجل الاجتماع أو رجل الاقتصاد منه الى الاديب الصادق الواقعى. ومن ناحية أخرى فان مضمون السياسة يختلف اختلافا جذريا عن مضمون الادب الواقعى ، والا ما كانت «السياسة» سياسة، وما كان الادب «أدبا». ويجب الا تقود الدعوة للالتزام الى مثل هذا الخلط ، أو الى مطالبة الاديب بأن يبتعد عن كونه «فنانا» خالقا مبدعا. وطبيعى أن أى أديب صادق الحساسية سليم الطبع لا يمكن الا ان يستجيب لنداء شعبه، ولابد لاشعاعات مجتمعه من أن تخترق عقله ووجدانه، وتغذى روحه، والا كان أديبا فاشلا لا وزن له ولا قدرة على التأثير الايجابى القوى.

وقد تنبه الدكتور الجرارى الى هذا جيدا ، وام يفكر فى الزام الاديب بشىء يأتيه من خارج ذاته الواعية المتفهمة المدركة لقضايا الناس والجماهير، على الرغم من أنه يرى أن الادب عنصر حركة أصيلة، يقاوم كل الموانع والطفيليات وجميع السلبيات والترسبات ومختلف ظواهر الزيف والفساد،

(3) «الادب للشعب» ــ سلامة موسى ــ الانجلو المصرية ــ 1956 ــ ص. 93 .
(4) صحيفة «المساء» القاهرية ــ العدد 801 ــ الصادر فى 24 ــ 12 ــ 1958 ــ ص. 8

ويصارع من أجل استمرار الحرية وتحقيق ارادتها ، واثبات امكانياتها، ثم تشكيل هذه الارادة والامكانيات وتحويلها الى واقع قوى وتقدمى نزاع الى التحرك والتغيير ، والى الخلق والابداع .

أقول انه مع الايمان الشديد بالدور الايجابى الفعال القيادى الرائد الذى يلعبه الادب والاديب، فان الدكتور الجزارى يسعى الى التوفيق بين ذات الاديب وبين الواقع الخارجى المتصل بذوات الآخرين ، وواقع الجماهير بصفة خاصة . وكذا فانه يترك للاديب مهمة تحديد دوره النضالى دونما قسر أو ارهاب أو ضغوط من الخارج . انه حقا يربط الحرية بالعقيدة السياسية والمفاهيم النضالية والاهداف القومية الكبرى التى تدين بها الجماهير ، ويربطها بالقيم الاخلاقية التى يتجاوب معها الوجدان الشعبى. ويذهب الى أن الاديب داخل هذا الاطار (متروك لاحساسه بالمسئولية ، لا يأتيه أمر أو تشريع من أية سلطة مهما كانت ، ولا تفرض عليه أية رقابة سوى رقابة الضمير الفردى والجماعى. ربما كان فى هذا تقييد للحرية ، ولكنه تقييد جماهيرى تلقائى لا يقصد الى غير كبح جماح الذاتية والفردية). ص 17 .

ان دعوة المؤلف الى الالتزام بقضايا العصر ومشكلات المجتمع، والى المشاركة فى معارك البناء والحرية والتقدم ، انما هى دعوة الى تعميق الاحساس بالحرية نفسها ، لا الى الحد منها أو الحجر عليها ، لانها غير قائمة على الافتعال والقسر، ولا تطالب الادباء باثقال ضمائرهم بغير ما تنفعل به كما يقول محمود أمين العالم فى كتابه (الثقافة والثورة). ذلك لانها دعوة الى تعميق الاحساس بالواقع عن طريق المشاركة فى تغييره وتجديده واعادة صياغته. انها دعوة الى ارتباط الادب والفن بحياة الجماعة، وحركة الحياة. ولا يمكن لدعوة كهذه أن تكون بغير وعى واقتناع واختيار حر. ولا يمكن لدعوة كهذه أن تكون على حساب الادب والفن بل هى دعوة الى نضارته وخصوبته وحيويته وتجدده الى غير حد . ان الحرية هى شرط الالتزام . فلا التزام بغير حرية . وليس ملتزما من كان التزامه صادرا عن قسر أو مجاراة أو مجاراة أو ممالاة أو نفاق اجتماعى. بل ليس فنا او ادبا ما يصدر عن غير الوجدان الصادق والارادة الحرة. والادب والفن خلق وابداع كله، ولا خلق ولا ابداع بغير حرية. ان الالتزام فى الادب والفن وعى واقتناع واختيار حر (5)

(5) «الثقافة والثورة» — محمود أمين العالم — دار الاداب — بيروت — 1970 ص 54—55

الا أن مفهوم الحرية هنا ، وأعتقد أن الدكتور الجرارى يوافقنى عليه، قائم على اساس حرص الاديب على عدم العبث بمجتمعه على صورة تجعل افراده عابثين ، لهم مطلق الحرية فى كل ما يحلو لهم. لان المجتمع عنده يتعدى كل ألوان النشاط الفردى ويتفوق عليها ، وهو لن ينتهى فى موقفه هذا من المجتمع الى موقف سلبى ، وانما الى موقف ايجابى متفاعل . كنتيجة طبيعية للتفاعل الديناميكى بين ذات الاديب وموضوع العمل الادبى . فالادب لا يمكن أن يكتسب الموضوعية المطلقة الجامدة التى يتميز بها جهاز من أجهزة العلم ، لانه لا يكتفى بالمراقبة والملاحظة والتسجيل ، بل انه يشارك . وتتمثل هذه المشاركة فى الاختيار والانتقاء من الواقع .. وهنا تتمزج الذات بالحقيقة الموضوعية القائمة خارجها . وجدير بالملاحظة أنه ليس ثمة اختيار تلقائى . ان الاختيار دائما يصدر عن موقف معين سواء كان الفنان واعيا به أو غير واع. وهذا الموقف تحدده بشكل خاص فلسفته فى الحياة والمجتمع، وشبكة العلاقات التى تربط ذاته بذوات الآخرين . ومن تفاعل هذه العوامل تخرج تلك الصورة الادبية أو الفنية التى يرتضى الكاتب أن يعرضها على الناس .

وقد حاول الدكتور الجرارى فى كتابه البحث عن صورة الحرية ومدلولها فى الادب العربى خلال عصوره الممتدة فى التاريخ، ليرى هل عرف أدبنا العربى الاديب الحر والتعبير الحر والموقف الحر، غير أنه فيما وجده متوفرا بين يديه من نماذج شعرية وأقوال نثرية ومواقف عملية، لم يظفر بشىء يتجسد فيه مفهوم الحرية كما أوضحنا معالمه منذ قليل . اذ انطلقت الحرية عند أغلب الشعراء والادباء والمفكرين والعلماء من (الوعى بالضمير الفردى ، ومن شحن الوجدان الذاتى بطاقات الثقة بالنفس والاحساس بعزتها الشخصية . ويبدو أنهم لم يلتفتوا كثيرا الى الحرية فى معناها الاجتماعى الجماعى ، ولم ينظروا اليها من بعد جماهيرى أو انسانى. وربما كان احساسهم بالحرية — حتى فى اطارها الفردى — موقتا لايستمر، ورهنا بالانفعال لحوافز عابرة لا يلبث بعد انقضائها أن يهدأ) **ص 62** .

وكان طبيعيا أن يخلص المؤلف الى هذا الحكم وينتهى الى هذه النتيجة، والا لاختلفنا معه على طول الخط. ذلك أنا ونحن نقرأ الشعر الذى أورده، والمواقف التى ذكرها، والشخصيات التى تعرض لها، لم نتلمس شيئا يتفق وما حدده الكاتب فى حديثه عن «حقيقة الحرية» و «حقيقة الادب» و «بين الحرية والادب» . فالنماذج التى اختيرت من العصر الجاهلى، وفى صدر الاسلام ، وفى ظل الصراع المذهبى والسياسى والقبلى ، وأقوال المتنبىء والمعرى، وكذا شعراء الاندلس مثل (سليمان بن وانسوس المكناسى)

و (أبو القاسم خلف بن فرج الالبيرى) المعروف باسم السميسر ، وشعراء المغرب كـ (محمد بن حبوس) و (أبو الحسن على مصباح) وكذلك العلماء أمثال احمد بن حنبل ، مالك بن أنس، والقاضى الجرجانى، وعز الدين بن عبد السلام الدمشقى، أبو القاسم الشاطبى ، عبد الواحد الونشريسى ، وعلى خرزوز ، وعبد الوهاب الزقاق. هؤلاء جميعا تنبع الحرية عندهم من مواقف فردية بحتة، وليست نابعة فعلا من واقع الجماهير ومطالبها وتطلعاتها بل انها لا تعبر عن مجموع الشعب ، بقدر تعبيرها عن شاعر أو مفكر أبعد نفسه بنفسه عن حياة الكتل الكادحة والجماهير الفاعلة . ان للواحد منهم آنفة خاصة ، وعزة نفس فردية ، تجعله يأبى مثلا الخضوع للحاكم ، أو التملق له بشكل أو بآخر. واذا ما أرضاه الحاكم ولو بكلمة بسيطة انتهى كل شىء ، وكأن شيئا لم يكن مادام احساسه بأنه وحده حر لم يمسسه شىء من ضرر .. أما ماورد من أبيات أربعة **ص 42** على لسان «المعرى» توحى بأن لديه نزعة اشتراكية، فانى أختلف مع المؤلف فى وصفها بهذه الصفة . ذلك أن «المعرى» يصدر فى هذه الابيات عن مشكلاته الخاصة جدا والتى لم تعد خافية على أحد . ان وراءها احساسه بالنقص، ومحاولته التفرد والتوحد ، وقضاياه الفردية الذاتية المطلقة. ان هذه الابيات لا تمثل ركيزة أساسية ، وعقيدة ثابتة، وقاعدة فكرية رئيسية صلبة ، وايمان قوى لا يتزعزع بالعدل الاجتماعى ، والمساواة الاقتصادية، والقضاء على التفاوت الطبقى . ثم انها لا تشكل القاسم المشترك الاعظم فى كل ما خلف لنا «المعرى» من شعر، بحيث تبدو هذه الابيات معبرة عن ايديولوجية يؤمن بها ، ويدافع عنها ، ويخلص لها ، ويتشبث بأهدابها فى كل وقت وموقف وحرف . ومن ثم فان حريته مرتبطة بذاته وأنانيته وفرديته واحساسه الاعظم بالعظمة والعبقرية، ولاشىء فيها يتصل اتصالا وثيقا بحياة الناس العاديين ، وقضاياهم الواقعية ، وصراعاتهم الطبقية ، وحياتهم الاجتماعية التى يعيشونها .

وفيما عدا ذلك فان المعرى لا يختلف عن الآخرين فى شىء. وأعتقد أن المؤلف يوافقنى فى هذا الحكم. لانه يقول فى نهاية حديثه عن الظروف التى ساعدت على تغذية الفردية فى نفس الاديب العربى، وجعلته يتقاعس عن التفاعل مع مواطنيه، وحالت بينه وبين وظيفته الحيوية فى المجتمع : (... وكان ممكنا لهذه الطاقات المحدودة أن تصنع شيئا ما لو وجد الخيط الرابط بين الاديب والجماهير، حتى يتصل التيار وتتبادل الشحنات ويقوى بعضها بعضا ، ولكن الخيط كان ضائعا وظل كذلك وما زال). **ص 64 — 65**

وحقيقة الامر أن هذا الخيط الذى كان ضائعا ، والصوت الذى كان خافتا أو مبحوحا، والدعوة التى كانت مكتومة الانفاس، والضوء الذى كان مخنوقا، لن يكون لها بعد عذر فى المغرب الاقصى الشقيق، وقد انطلق صوت الدكتور عباس الجرارى عبر موجات الاثير، وخلال كل سطر مطبوع، ومع نبض كل حرف يخطه يراعه، وفى كل منتدى أدبى، ومع كل لقاء ثقافى وفكرى، بل أكاد أقول مع كل نفس يصدر عنه، مخلصا صادقا واعيا مؤمنا بكل ما يكتب ويقول . انه بالفعل صوت جديد فى المغرب الشقيق، وشعاع ضوء بزغ وأشرق ، أتمنى لنوره أن يمتد ويمتد، وأن يثبت امام ما ستواجهه به كل القوى الرجعية والمتخلفة فكريا وعقليا واجتماعيا وعقديا . وانى على ثقة تامة بأن الانتصار دائما حليف للجديد المتقدم المتطور، مهما صادف فى طريقه من صعاب، هو مؤمن بأنه لا بد مصادفها، ايمانه بضرورة التغلب عليها ، وتجاوزها ، وهزيمتها .. لانها سنة التطور ، بل سنة الحياة ..

دكتور سيد حامد النساج

أستاذ بكلية الآداب

(جامعة وهران)